مجلّة اللّغة العربيّة المجلّد: 22 العدد: 3 السّنة: الثّلاثيّ الثّالث 2020 ص: 403- 422

التأصيل والتقويم في فكر عبد الرحمن الحاج صالح "دراسة مسائل في أصول النحو".

The establishing of the origins and the evaluation in the thought of the linguist Abdurrahman al-Hadj Salah.

أ. هشام صويلح*

تاريخ الاستلام: 07-10-2019 تاريخ القبـــول: 16-02-2020

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى تتبّع أهم المبادئ العلميّة والمنهجيّة التي اعتمدها اللساني الجزائري عبد الرحمن الحاج صالح في بحوثه ومؤلفاته منذ ستينيات القرن العشرين، التي تركز أساسا على مبدأين جوهريين، هما:

أوّلا: إعادة النظر في قراءة التراث العلمي اللغوي، من خلال وضعه في سياقه التاريخي والمعرفي. وذلك من أجل اكتشاف المفاهيم الحقيقية التي كان يقصدها الأوائل.

وثانيا: تصحيح وتقويم بعض الأفكار الحديثة والمعاصرة التي تعامل أصحابها مع التراث اللغوي العربي كنسخة واحدة مكرّرة عبر التاريخ، حيث طابقوا

* جامعة 20 أوت 1955 سكيكدة. الجزائر، البريد الإلكتروني: Hichems79@gmail.com (المؤلف المرسل)

مثلا- بين مفاهيم النحاة المتأخّرين والنحاة القدامى، من دون التمييز بين ما هو أصيل وما هو تقليدي.

وستركّز الدراسة على تناول واحد من المباحث الأساسية التي أعاد الدكتور الحاج صالح دراستها في ضوء مبدأي التأصيل والتقويم؛ وهو مجموع المسائل المتصلة بأصول النحو العربي السماعيّة منها والعقليّة.

كلمات مفتاحيّة: عبد الرحمن الحاج صالح؛ فكر؛ التقويم؛ التأصيل؛ أصول النحو.

Abstract:

This study aims to follow the most important scientific and methodological principles adopted by the Algerian linguist Abdurrahman al-Hadj Salah in his researches and writings since the 1960s, based principally on two fundamental principles;

- First; reconsidering the reading of the linguistic scientific heritage, through its development in its historical and cognitive context.

- Second; correcting and evaluating some modern and contemporary ideas that their writers treat the Arabic linguistic heritage as one duplicate copy throughout history.

Keywords: Abdurrahman al-Hadj Salah; origins; keywords; evaluation; thought.

1. مقدّمة :

بذل اللساني الجزائري عبد الرحمن الحاج صالح جهده العقلي والبدني من أجل تطهير الفكر اللغوي العربي –وبخاصّة النحوي- من الأخطاء العلمية

والمنهجية التي ما انفكّ الدارسون العرب متمسكين بها، ويدعون إليها باعتبارها مسلّمات لا تقبل النقاش أو إعادة النظر.

وقد اعتمد من أجل ذلك مبادئ علميّة وإجراءات منهجيّة صارمة، كاشفا بها عن أصول البحث العلمي التي اعتمدها في أبحاثه. وقد دعا - مرارا- الباحثين العرب إلى انتهاجها، وذلك لما ينتج عنها، في البحث العلمي، من مصداقية في المعطيات ونجاعة في النتائج.

ودافع عن أفكاره وقناعاته بأسلوبه العلمي الرصين في محافل علميّة كثيرة، محاورا ومناظرا، وكان شديد الحرص على توضيح مفاهيم مضامينها - التي يدرك مسبقا صعوبة فهمها على غير المتخصص- .

2. الأصول الإبستمولوجية والمنهجية للبحث في التراث اللغوي العربي:

سنحاول- فيما يلي- إبراز أهم أصول البحث العقلية والإبستمولوجية التي ينبغي على الباحث العربي أن يتنبه إليها قبل الخوض في دراسة التراث اللغوي العربي:

- الانطلاق في دراسة علوم اللسان العربي، من أعمال العلماء العرب **المبدعين**؛ أي العلماء الذين أسّسوا هذه العلوم وفروعها، وتم نموها على أيديهم، وذلك من القرن الثاني الهجري إلى الرابع، وبعض من جاء بعدهم من العباقرة[1]، مثل الإستراباذي والسهيلي وغيرهما.

- عدم اقتصار الدراسة العلمية للسان البشري على ما ظهر في بداية القرن العشرين مع دوسوسير، بل يجب الاعتراف **بعلميّة** الدراسات اللغوية السابقة لاعتمادها على وسائل عقلية راقية في التحليل، "وأحسن مثال للدراسة العلمية للغة العربية هو كتاب سيبويه بما يحتوي عليه من تحليلات علمية بحتة"[2].

- عدم اقتصار مفهوم المنطق على ما جاء به أرسطو، لأن المنطق أنواع. والعرب القدامى درسوا اللغة العربية بمنطقهم الخاص بهم؛ لأن تصوّرهم للغة –وعند الخليل خاصّة- "كان يتميز عن كل ما سبقه من التصورات والنظريات عند الأمم الأخرى تميّزا كبيرا"[3].

- التأكيد على أن العلماء العرب القدامى درسوا اللغة العربية لغرضين غرض انتفاعي عملي، وغرض علمي نظري، وليس كما ادعى أكثر المؤرخين للعلوم من الغربيين أن ما ظهر من دراسات عند العرب القدامى جاءت كلها لغرض عملي غير نظري، ومن ثمة لا يمكن وصفها بأنها علمية[4].

1.2. الأصول البحثية الخاصة بضرورة تحري النصوص التراثية الأصيلة، وضرورة فهم مقاصدها كما أراد أصحابها دون تشويه أو تحريف أو تعسف:

من أجل توضيح هذه الأصول وتثبيتها، عرض الحاج صالح على الباحثين مجموعة من القواعد ينبغي الالتزام بها في قراءة ونقد أي نص تراثي، وهي كما يلي[5]:

- ضرورة الرجوع إلى أقوال القدامى في نصوصهم الأصيلة؛ كالعودة إلى كتب الخليل أو كتاب سيبويه أو الفراء وغيرهم، أو نقلها عمن يوثق في علمه من العلماء القدامى كمحمد بن سلام الجمحي. والامتناع عن الاكتفاء بما روي عنهم في مؤلفات المتأخرين، مع وجود النص الأصلي، أو ما تفرّد به المتأخّرون من أخبار ولم يروه أحد قبلهم؛ كما جاء في بعض كتب أبو البركات بن الأنباري

- ضرورة الاصطفاء للمصادر وتخيّر ما أجمع العلماء قديما وحديثا على صحته، وعدم التخليط بين الكتب العلمية والكتب الشبه علميّة؛ التي لا تصلح أن تكون مضامينها مرجعا للبحث العلمي.

- الرفض المطلق لكل مصدر يتّضح أن أكثره كذب وافتراء، وإن وجد فيه بعض ما روي في غيره، ولا سيما إذا كان مؤلفه معروفا بالكذب بإجماع أهل عصره.

- ضرورة مراجعة النص الأصلي وقراءته ومحاولة فهمه والوصول إلى مقاصده قبل الاطّلاع على شروحاته؛ أي لابدّ من عدم اقتصار الباحث على تأويل المتأخر لأقوال المتقدّم دون الرجوع إلى صاحب النص الأصل.

- التمسّك بمبدإ التصفّح الكامل لنصوص المؤلّف الواحد؛ ليتمكن الباحث من إدراك المقصود الحقيقي لصاحب النص، وعدم الاكتفاء بالاطلاع على بعض النصوص وترك البعض؛ لأن فكر العالم نسق من المفاهيم المترابطة، وليس أجزاء مفصولة عن بعضها.

- الاعتداد الجدّي المستمر بعامل الزمان في تحوّل رؤية العلماء وتصوراتهم ومفاهيمهم، وما يحصل بالتالي لمصطلحاتهم من تحول في معانيها؛

- ضرورة التمحيص الموضوعي الدقيق للنظريات اللسانية الغربية الحديثة وتفادي اسقاطها كما هي على اللغة العربية دون مراعاة لخصائصها التي تتميّز بها عن اللغات الأوربية التي استخرجت منها النظريات الغربية.

وبعد ذكر أهم المعالم والأصول البحثية التي وضعها عبد الرحمن الحاج صالح من أجل البحث السليم في التراث اللغوي العربي وبخاصّة النحوي منه وفهم مقاصد نصوصه كما أراد أصحابها، نبيّن عمليّا نماذج من مظاهر التأصيل والتقويم من خلال بعض كتاباته، لاسيما المتعلقة منها بمسائل أصول النحو العربي.

3. مظاهر التأصيل والتقويم في دراسات الحاج صالح، لاسيما المتعلقة منها بمسائل أصول النحو العربي.

1.3تنبيهه على علاقة التبادل المعرفي بين أصول النحو وأصول الفقه:

إذا كان الكثير من الباحثين يعتقد أن أصول النحو مستمّد منذ نشأته من علم أصول الفقه في منهجيته وفي مصطلحاته، وبُنِيَ على غراره[6]، فإن الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح، يُرجِّح فكرة أن المفاهيم المشتركة بين النحو والفقه ليست نتيجة تأثير الفقه على النحو، **وإنما نتيجة التأثر المتبادل بين جميع العلوم الإسلامية** والدليل على ذلك أن للشافعي(150- 204هـ) في رسالته عبارات كثيرة يستعملها سيبويه (180هـ) في النحو، وتدل على معنى واحد، مع الفارق الذي يقتضيه اختلاف العلمين، وقد يكون الشافعي أخذ بعض مصطلحاته ومعانيها من أبي حنيفة، أو من النحاة واللغويّين الذين عاصرهم، ومنهم سيبويه[7].

ويؤكّد الدكتور الحاج صالح أن تأثّر النحو بالفقه كان بعد نضوج النحو واكتماله، وقد وقع على مستوى تغيير المفاهيم النحويّة الأصيلة بمفاهيم أخرى مستمدّة من الفقه، مع بقاء المصطلحات نفسها. وأمّا فيما يتعلّق بأصول النحو فإنه يرى أن أوّل من خلَّط مفاهيم أصول النحو بأصول الفقه هو أبو البركات بن الأنباري في القرن السادس الهجري، باعتباره أوّل من ألّف كتابا صريحا في أصول النحو بعنوان "لمع الأدلّة في أصول النحو"[8]، متأثّرا في ذلك بكتب أصول الفقه.

2.3 التأكيد على عدم اسقاط ابن جني لأصول الفقه على أصول النحو في كتابه الخصائص، باعتباره أوّل من تحدّث عن أصول النحو:

إن أول من فكّر في وضع علم لأصول النحو، هو ابن جني، وقد أشار إلى ذلك صراحة في كتابه الخصائص؛ حيث يقول في مقدّمة الكتاب: "...وذلك أنّا لم نجد أحدا من علماء البلدين تعرّض لعمل أصول النحو على مذهب أصول الكلام والفقه"[9]. وهذا التصريح من ابن جني اوهم الكثير من الباحثين أن ابن جني قلّد في عمله لأصول النحو مذهب الأصوليين والفقهاء. وقد دفع هذا الفهم غير الدقيق الدكتور الحاج صالح إلى توضيح أنه على الرغم من ذكر ابن جني لمذاهب الفقهاء والمتكلّمين في كتابة أصولهم، إلا أنه **لم ينقل تصوّراتهم ومفاهيمهم** كفقهاء ومتكلّمين، وبالتالي **لم ينقل تحديداتهم وشروطهم** كما وردت في كتبهم، **لأنه كان يعتمد على المفهوم العام الذي يشترك فيه، حقيقة النحوي والفقيه، ويتصرّف فيه من وجهة نظر النحوي**، ليس في تطبيقه على المادة النحوية فحسب، بل بإعطائه أيضا المعاني الفرعية ما يوجبه النحو بخصوصيته، ولهذا السبب **فكتابه الخصائص أصيل** من حيث هذا الجانب[10].

وإن صح عن ابن جني أنه أخذ من الفقهاء أو استوحى أشياء من أقوالهم، **فلا ننسى أنه كان عالما لغويّا قبل كل شيء، وعالما مجتهدا لا مقلدا**. والدليل على ذلك تناوله لمفهومي الأصل والفرع من زاوية النحو لا غير؛ فالأصل الذي له فرع ليس بالضرورة عنده ما ثبت سماعه؛ أي ما ثبت في النص عند الفقهاء، بل إنه الشيء الذي تتفرّع منه الفروع في مثل الاشتقاق، وكذا كل ما هو أسبق في المرتبة كالمذكّر بالنسبة إلى المؤنّث، والمفرد بالنسبة إلى المثنى والجمع[11].

وهذا يدل على أن ابن جني في كتابه الخصائص اعتمد على مفاهيم نحويّة أصيلة لم يُخلطها بمفاهيم الفقه. وما ذهب إليه الحاج صالح يؤيّده بقوة ما أقره الدكتور محمد خير الحلواني في كتابه "أصول النحو العربي"[12].

3.3 نقده لكتاب "لمع الأدلة في أصول النحو" لابن الأنباري، والتنبيه على ما جاء فيه من أخطاء:

سجّل المرحوم الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح على كتاب ابن الانباري مجموعة من الملاحظات، نجمل أهمها فيما يلي[13]:

- إذا كان ابن الانباري هو أوّل من ألّف كتابا بعنوان أصول النحو، فإنه ليس هو الواضع لعلم الأصول في النحو، بل هو الواضع لهذا الأسلوب الخاص في تناول أصول النحو؛

- ما أبدعه ابن الانباري لا يستحقّ الثناء؛ لأنه لم يكتف بانتهاج نهج الفقهاء في أصولهم أصلا أصلا، بل أخذ منهم كلّ مفاهيمهم بتصوّرهم الخاصّ بهم.

- رتّب أبواب كتابه كما رتّبوا أبواب كتبهم إلا بشيء من التكييف كأن أدلة النحو مطابقة تماما لأدلة الفقه، ولم يغير في هذا كله إلا المادة اللغوية في مقام المادة الفقهية، وذلك بإسقاطه أدلة الفقه على أصول النحو بابا بابا وحرفا حرفا.

- يحدّد القياس النحوي كما يحدّد الأصوليّون القياس الفقهي تماما دون مراعاة خصائصه؛

– تسبب في التخليط الحاصل، منذ تأليفه الكتاب إلى الآن، بين المفاهيم الأصوليّة النحويّة والفقهيّة.

ولهذا رأى بعض الباحثين، أن ابن الأنباري نقل إلى أصول النحو جميع الاصطلاحات التي استخدمها الفقهاء في أصولهم. حتى إن القارئ لكتاب لمع الأدلّة يشعر وكأنه يقرأ كتابا في أصول الفقه، أو إنه يقرأ لإمام فقيه، وليس لنحوي مدقّق[14].

4.3. تأكيده بالإحصاء الرياضي أن القرآن الكريم نزل بكل لغات العرب، وليس بلهجة قريش فقط كما يدّعي معظم الباحثين، وتوضيحه لمفهوم غلبة لهجة قريش في القرآن:

إن القبيلة الأكثر حظّا **والأغلب لغتها في القرآن** على سائر لغات القبائل الأخرى، هي قبيلة قريش، ولكن ليس معنى ذلك أن كل القرآن نزل بلغة قريش، بل نزل بلغات كل القبائل العربية. وقد أثبت الحاج صالح ذلك علميا بالأدلّة الإحصائية، وتوصّل إلى أن ما نسبته 98٪من مجموع مفردات القرآن تشترك فيها لغات كل العرب، و2٪ فقط من المفردات اللهجية تنتمي إلى 35 قبيلة أو إقليم. ولاحظ أن قريشا تأتي في المرتبة الأولى من حيث نزول القرآن بمفرداتها اللهجية؛ أي بنسبة 27.96٪ من مجموع 2٪، وبذلك فهي أكثر القبائل لهجات في القرآن، وتأتي بعدها قبيلة هذيل ثم تليها كنانة، وهذه القبائل من الحجاز وبذلك تكون لغة قريش أو أهل الحجاز **متغلّبة** على غيرها من القبائل، لكن هذا بالنسبة إلى المفردات اللهجية؛ أيّ التنوعات التي تطرأ على تأدية بعض المفردات، وليس بالنسبة الى مجموع مفردات القرآن؛ لأن مجموع مفردات القرآن

(يتراوح ما بين 77.436 و77.499) الذي يشترك في استعماله كل العرب، ولا تنفرد به أي قبيلة من القبائل، هو الذي يُكوِّن بالفعل، اللغة المشتركة بين جميع العرب. وهو ما قصده سبحانه وتعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ الشعراء[15].

5.3. ردّه على من أنكر على سيبويه استشهاده بالشعر المجهول القائل:

يقول الدكتور عبد الرحمان الحاج صالح في قضية استشهاد سيبويه بالشعر المجهول القائل : "أصل الأصول هنا هو **ثبوت فصاحة المنقول بثبوت فصاحة القائل المنقول منه، أو الناقل عن العرب الفصحاء**، ولم يحتج النحوي منهم في ذلك الزمان إلى اسناد، لأنه هو أو شيخه المصدر الأول لما سمعه...فنستنتج من ذلك أن اسم الشاعر...غير مطالب بذكره العالم اللغوي ليثبت انتماء المسموع من الشعر إلى اللغة العربية الفصيحة، **فحجيته حاصلة من جهة انتمائه إلى المسموع من فصحاء العرب**...فهذا يفسر عدم العناية الشديدة بذكر اسم الشاعر لا عند سيبويه فقط بل عند كل العلماء الموثوقين"[16]، وعليه، يضيف الحاج صالح فـ"نحن اليوم نطمئن إلى ما روى سيبويه؛ لأنه رواه بالسماع عن فصحاء العرب وحدهم، ولأنه لم يأت أي باحث على الاطلاق بحجج مقنعة عند جميع العلماء تناقض ما أتى به سيبويه من المسموع"[17]، ومن ثم فإن قول القائل "إن النحاة قد يستشهدون على كلام العرب ببيت مجهول القائل" غير وارد أبدا ههنا"[18][18].

6.3. إعادة نظره في الرأي القائل بأن النحاة القدامى اهتمّوا بالشعر أكثر ممّا اهتموا بالنثر:

إن الاعتقاد الشائع عند الدارسين المعاصرين، هو أن النحاة القدامى اعتمدوا على الشواهد الشعرية في تقعيد القواعد أكثر من اعتمادهم على الشواهد

النثرية[19]؛ غير أن الأدلّة الإحصائية لدراسة أقدم كتابين في المدرستين البصرية والكوفية، وهما "الكتاب" لسيبويه، و"معاني القرآن" للفراء، تؤكد اهتمام القدامى بالنثر كاهتمامهم بالشعر أو أكثر. وقد انتهى الدكتور الحاج صالح بعد دراسته العلمية الإحصائية لهذين الكتابين إلى نتيجة مفادها "أن حجم الشواهد النثرية في كتاب سيبويه وغيره، التمثيلية منها خاصة، أكثر بكثير من الشواهد الشعرية"[20]، ويؤكد هذا الرأي أيضا الدكتور محمد خير الحلواني في ردّه على الرأي القائل بأن لغة الشعر طغت على لغة النثر في تراث النحو العربي بقوله: "...ولكن النظرة المتمهلة المتأملة تجد أن سيبويه كان يعول على كلام العرب المحكي، وهو نثر، أكثر مما يعول على الشعر...ومثل سيبويه الكسائي والفراء والأخفش"[21].

7.3. **تقويمه للفكرة القائلة بأن عصر الفصاحة يقتصر على ثلاثة قرون زمنيّا، وسبعة قبائل مكانيّا:**

يتحدد عصر الاحتجاج بالكلام العربي الفصيح- حسب الحاج صالح- بإحداثيات زمانية ومكانية معينة، **إذ يبتدئ زمانيا من القرن الثاني قبل الهجرة وينتهي في القرن الرابع بعد الهجرة، ويتوزّع جغرافيا على كل قبائل شبه الجزيرة العربية، باستثناء القبائل المتاخمة للأعاجم. والذين يمثلون هذا الكلام هم العرب الفصحاء فصاحة سليقية.** لكن هل بقيت رقعة الفصاحة العربية في عصر الاحتجاج على حالها منذ تسجيل أول شاهد لغوي إلى آخر شاهد؟ وهل استمر العلماء في جمع اللغة وتسجيلها من القبائل الحضرية في الوقت نفسه، مع القبائل البدوية بعد القرن الثاني الهجري؟

لقد تغيّرت رقعة الفصاحة- حسب الحاج صالح- على مرِّ الزمان، فبعد أن شملت أكثر الأراضي العربية قبل الإسلام، بدأت تتضايق وتنحصر شيئا فشيئا بحكم اختلاط العرب بغيرهم في شبه الجزيرة العربية بعد ظهور الإسلام. ففي الوقت الذي بدأ أبو عمرو بن العلاء (ت 154) بجمع اللغة، بدأت رقعة الفصاحة في التقلّص تدريجيا، فترك المتحرّون (جُمَّاع اللغة) الحواضر ومدن الحجاز للاختلاط اللغوي الذي حصل بعد الفتوحات، واقتصروا على جمع اللغة في البوادي، إلا أنهم سجّلوا قبل ذلك الكثير من القصائد التي ترويها الرواة من أفواه الشعراء الذين عاشوا في الجاهلية. ويمكن أن يُقسم مصير الفصاحة (الذي يمتدّ من القرن الثاني قبل الهجرة إلى القرن الرابع بعد الهجرة) إلى أربع فترات متتابعة[22]:

1.7.3. **الفترة الأولى: العهد الجاهلي** (زمن المهلهل "زمن كثرة الشعر وتطويل القصائد" إلى نهاية النصف الأول من القرن الأول قبل الهجرة).

إن الشعر الذي وصل إلينا من هذه الفترة من الجاهلية يغطي شبه الجزيرة العربية بأكملها تقريبا، فكل قبيلة عربيّة كانت لها شاعر واحد على الأقل أو أكثر، رُويت عنهم أشعارهم. وأخذ اللغويون العرب ابتداءً من سنة 90هـ بلغة كل هؤلاء الذين نقل عنهم الرواة الفصحاء، وأما القبائل التي كانت تقطن على الحدود المتاخمة لبلاد العجم فلم تحظ بما حظيت به القبائل التي ابتعدت عن هذه الحدود.

2.7.3.**الفترة الثانية: بين الجاهلية والإسلام** (الشعراء المخضرمون)[23].

تمتدّ هذه الفترة من سنة 50 قبل الهجرة وتنتهي حوالي سنة 41هـ، والذي حدث في هذه الفترة المهمة من حياة اللغة العربية هو حدث عظيم لا يتكرر في التاريخ

ألا وهو ظهور الإسلام ونزول القرآن الكريم بلغة العرب، وبذلك دخلت هذه اللغة في الخلود، وأحدث ذلك الحدث تغييرا عميقا في المجتمع العربي، وفي من كان يجاوره من المجتمعات غير العربيّة، وذلك بتنقل العدد الكبير من القبائل إلى المدن الجديدة كالبصرة والكوفة، أو مدن الشمال كدمشق وحِمص وغيرهما، فاختلطت القبائل في أماكن مختلفة من العاهلية الإسلامية الفتيّة ودخل الناس في دين الله أفواجا، ومنهم غير العربي اللسان، وظهر اللحن على السنة العرب أنفسهم من جرَّاء تعايشهم مع غيرهم. وخُتمت هذه الفترة في سنة 41 هـ (بداية عهد بني أُمية).

3.7.3.الفترة الثالثة: الشعراء الإسلاميون (من 41هـ إلى 180 هـ)[24].

إن رقعة الفصاحة السليقيّة بقيت على ما كانت عليه من بداية العهد الأموي حتى نهايته في 131 هـ. إلا أن اللحن بدأ ينتشر في المدن بسبب الاختلاط بين العرب وغيرهم. وبسبب ظاهرة تفشّي اللحن، شهدت هذه الفترة حدثا مهما - أيضا- وهو ظهور علم النحو من خلال استنباط أهم قواعد اللغة العربية الخاصة بالإعراب، ثم تدوين كلام العرب بالسماع المباشر من جميع القبائل العربية من أهل الحواضر والبوادي، باستثناء القبائل المتاخمة لبلاد العجم.

وبما أن التغيّر اللغوي بدأ يظهر في العهد الأموي الممتد بين سنتي 41 و131هـ إلا أن أغلب العرب القاطنين في المدن وخاصّة في أمصار الإسلام بقوا على فصاحتهم، والدليل على ذلك أن سيبويه والنّحاة الذين جاؤوا بعده احتجّوا بشعراء كثيرين من مكة والمدينة والبصرة والكوفة، كما استشهدوا في هذه

الفترة بشعراء فصحاء موالي في الأصل وليسوا من العرب الأقحاح. وكان ابن هرمة (ت 176) آخر الشعراء الفصحاء الذين احتج بهم سيبويه.

أما بعد وفاة سيبويه سنة 180 هـ، فقد ظهرت ظاهرة عدوى اللحن، وشملت كلّ التجمعات الحضرية، وما إن دخل القرن الثالث على الناس حتى اختفت الفصاحة السليقيّة في المدن باختفاء البيئات اللغوية الفصيحة فيها. فتوقف العلماء عن الاحتجاج بلغة الحواضر، يقول ابن جني: "علّة امتناع ذلك ما عرض للغات الحاضرة وأهل المذر من الاختلال والفساد والخطل، ولو عُلم أهل المدينة باقون على فصاحتهم ولم يعترض شيء من الفساد للغتهم، لوجب الأخذ عنهم، كما يؤخذ عن أهل الوبر"[25].

-أمثلة عن جمع اللغة وتدوينها من الحواضر في هذه الفترة:

أ- يروي الأزهري عن أحد العلماء العرب، وهو ابن العربي(230ه) أنه "كانت له معرفة بأنساب العرب وأيامها، وسمع من الأعراب الذين كانوا ينزلون **بظاهر الكوفة** من بني أسد وبني عقيل فاستكثر..."[26]. وهذا دليل على استمرار العلماء في جمع اللغة العربية الفصحى من أفواه فصحاء العرب في هذه الفترة وما بعدها في حاضرة الكوفة وما جاورها من الضواحي التي سكنها الفصحاء.

ب- يروي الأزهري أن ابن السكيت(244ه) "...لقي الأصمعي فيما أحسب فإنه كثير الذكر له في كتبه، ويروي مع ذلك عن فصحاء الأعراب الذين لقيهم **ببغداد**"[27]. وهذا دليل آخر على جمع اللغة وتدوينها في حاضرة بغداد في القرن الثاني الهجري وربما بعده بقليل.

4.7.3. الفترة الرابعة: تمتدّ من زمن اختفاء الفصاحة في المدن إلى زمن اختفائها في البوادي (من نهاية القرن الثاني إلى القرن الرابع)[28].

لقد خرجت الفصاحة السليقيّة من المدن في أواخر القرن الثاني، وبقيت في البوادي بدليل مواصلة العلماء في القرن الثالث حتى الرابع تحرياتهم اللغوية بنفس الاهتمام.

-أمثلة على بقاء الفصاحة في هذه الفترة:

أ- يقول الأزهري(282- 370ه) في كتابه "تهذيب اللغة" عن أسره لدى القرامطة سنة 312هـ، وتعجّبه من بقائهم على فصاحتهم، واستفادته من كلامهم واحتجاجه بلغتهم في كتابه: "...امتُحنت بالإسار سنة عارضت القرامطة الحاج بالهبير، وكان القوم الذين وقعت في سهمهم عربا عامتهم من هوازن...يتكلمون بطباعهم البدوية وقرائحهم التي اعتادوها، ولا يكاد يقع في منطقهم لحن أو خطأ فاحش...واستفدت من مخاطباتهم ومحاورة بعضهم بعضا ألفاظا جمة ونوادر كثيرة، أوقعت أكثرها في مواقعها من الكتاب"[29]. ويذكر في موضع آخر من كتابه "لم أودع كتابي هذا من كلام العرب **إلا ما صح لي سماعا منهم**، أو رواية عن ثقة..."[30].

ب- ابن جني وحكايته عن فتى أعرابي سمعه سنة (355ه) يتكلم على سليقته، فاحتج بكلامه. يقول: "سمعت سنة خمس وخمسين غلاما حدثا من عُقيل ومعه سيف في يده، فقال له بعض الحاضرين -وكنا مصحرين- يا أعرابي سيفك هذا يقطع البطيخ؟ فقال: إي واللّه وغواربَ الرجال، فنصب الغوارب على ذلك؛ أي ويقطع غواربَ الرجال"[31].

لكن في هذه الفترة بدأت العاميّة تنتشر في التخاطب اليومي، وتغلبت شيئا فشيئا على الفصحى، وليس في المدن فقط، وإنما في البوادي أيضا، وفي النواحي المنعزلة من شبه الجزيرة العربية. ومن ثم صارت الفصحى لغة ثقافة بعد أن كانت لغة كل أنواع التبليغ والتواصل بين أفراد القبائل العربية، إلا أن ذلك لم يتم إلا تدريجيا وفي مدّة طويلة.

وعليه فقد أخذت رقعة الفصاحة تتقلّص بصورة ملحوظة بداية من القرن الثاني حتى اختفت نهائيا في نهاية القرن الرابع، وتحديدا بعد وفاة ابن جني الذي قال قبل وفاته: "لو فشا في أهل الوبر ما شاع في لغة أهل المذر من اضطراب الألسنة وخبالها وانتقاض عادة الفصاحة وانتشارها لوجب رفض لغتها، وترك تلقي ما يرد عنها وعلى ذلك العمل في وقتنا هذا، لأنا لا نكاد نرى بدويا فصيحا، وإن نحن آنسنا منه فصاحة في كلامه، لم نعدَم ما يفسد ذلك ويقدح فيه"[32].

4. خاتمة:

تأسيسا على ما تقدّم، نخلص إلى أنّ عبد الرحمن الحاج صالح أسس لمجموعة من المبادئ والأصول العلمية والمنهجية. اعتمدها للبحث في التراث اللغوي العربي، وصحّح على ضوئها الكثير من المسائل والمفاهيم النحوية واللغوية؛ التي غير النحاة المتأخرون فحواها. ونقلها عنهم المحدثون والمعاصرون كما هي من دون تمحيص وتحرّ لحقيقتها.

ومن أبرز ما نبّه الحاج صالح عليه زملاءه، من العلماء العرب والأجانب - زيادة على ما سلف ذكره- نذكر النقاط التالية:

-عدم تأثر النحو العربي في نشأته وتبلور مفاهيمه وتصوراته بالمنطق اليوناني، ولا بأي نحو أجنبي، لأنه نحو صادر عن إبداع فكري عربي أصيل؛

-ضرورة التمييز بين مفاهيم النحاة الأوائل؛ أمثال الخليل وسيبويه، ومن سبقهما وعاصرهما وجاء بعدهما، إلى غاية بداية القرن الرابع الهجري ومفاهيم النحاة المتأخرين كابن مالك وغيره؛

-ضرورة التمييز بين الأغراض العلمية العميقة في نحو القدامى، والأغراض التعليمية التربويّة في نحو المتأخرين. وذلك لتجنب وصف أعمال القدامى بالغموض والتعقيد في مقابل وصف أعمال المتأخرين بالوضوح والتبسيط.

5. الهوامش:

(1) انظر عبد الرجمان الحاج صالح: منطق العرب في علوم اللسان، (منشورات المجمع الجزائري للغة العربية، الجزائر، 2010) ص 8.

(2) انظر المرجع نفسه...ص 11.

(3) المرجع نفسه...ص12 و28.

(4) المرجع نفسه... ص10.

(5) انظر عبد الرجمان الحاج صالح: السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة. (موفم للنشر، الجزائر، 2012) ص 9 وما بعدها.

(6) انظر أحمد محمود نحلة: أصول النحو العربي، (دار العلوم العربية، بيروت- لبنان، ط1، 1987) ص 16.

(7) انظر الحاج صالح: منطق العرب... 23 وما بعدها.

(8) الحاج صالح: منطق العرب... 25.

(9) ابن جني: الخصائص ج1، تحقيق محمد علي النجار، (دار الكتب المصرية، مصر (د-ت) ص2.

(10) انظر الحاج صالح: منطق العرب... 325.

(11) نفسه... 326

(12) انظر محمد خير الحلواني: أصول النحو العربي، (إفريقيا الشرق، الدار البيضاء- المغرب، 2011)، ص10.

(13) انظر الحاج صالح: منطق العرب... 325- 326.

(14) انظر جميل علوش: ابن الأنباري وجهوده في النحو، (رسالة دكتوراه مخطوطة، جامعة بيروت- لبنان، 1977). 122.

(15) انظر الحاج صالح: السماع اللغوي... 204.

(16) الحاج صالح: السماع اللغوي... 258 و259.

(17) الحاج صالح: السماع اللغوي... 260.

(18) المرجع نفسه... 259.

(19) انظر تمام حسان: الأصول، (عالم الكتب، القاهرة- مصر، 2000) ص96.

(20) الحاج صالح: السماع... 323.

(21) محمد خير الحلواني: أصول النحو العربي... 76.

(22) الحاج صالح: السماع... 77 وما بعدها.

(23) - الحاج صالح: السماع... 98 وما بعدها.

(24) - المرجع نفسه... 110 وما بعدها.

(25) ابن جني: الخصائص، ج2، تحقيق محمد علي النجار، (دار الكتب المصرية، مصر (د- ت). ص5.

(26) أبو منصور الأزهري: تهذيب اللغة. ج1، تحقيق عبد السلام هارون، (الدار المصرية للتأليف والترجمة. 1964). مصر. ص 21.

(27) نفسه ج1، ص 23.

(28) انظر الحاج صالح: السماع اللغوي... 125 وما بعدها.

(29) أبو منصور الأزهري: تهذيب اللغة. ج1، 40.

(30) أبو منصور الأزهري: تهذيب اللغة. ج1، ص7.

(31) المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والايضاح عنها، ج 1/ تحقيق علي النجدي وآخرين، (دار سزكين للطباعة والنشر، 1986)، ص 210.

(32) الخصائص... 6/2.

5. قائمة المراجع:

1- ابن جني: الخصائص، ج1+ج2 تحقيق محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، مصر (د- ت).

2- ابن جني: المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والايضاح عنها، ج 1/ تحقيق علي النجدي وآخرين، دار سزكين للطباعة والنشر، 1986.

3- أبو منصور الأزهري: تهذيب اللغة. ج1، تحقيق عبد السلام هارون، الدار المصرية للتأليف والترجمة. 1964. مصر.

4- أحمد محمود نحلة: أصول النحو العربي، دار العلوم العربية، بيروت- لبنان، ط1، 1987.

5- تمام حسان: الأصول، عالم الكتب، القاهرة- مصر، 2000.

6- التواتي بن التواتي: محاضرات في أصول النحو، دار الوعي، الجزائر، 2008.

7- جميل علوش: ابن الأنباري وجهوده في النحو، رسالة دكتوراه مخطوطة، جامعة بيروت- لبنان، 1977.

8- عبد الرجمان الحاج صالح: السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة. موفم للنشر، الجزائر، 2012.

9- عبد الرحمان الحاج صالح: منطق العرب في علوم اللسان، منشورات المجمع الجزائري للغة العربية، الجزائر، 2010.

10- محمد خير الحلواني: أصول النحو العربي، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء- المغرب، 2011.